سلمى حمدي

القهوة ليست للصغار!

لطالما أصابتني تلك الجملة السخيفة بالضجر!

كثيرا ما كان أبي يرددها عليّ كي أترك مشاهدة برنامجي المفضل، وأقوم لأُعد له فنجانا من القهوة..

أذكر أنني تجرأت يوما وطلبت منه تفسيرا لتلك الجملة، فأشاح بوجهه عني وسألني بفتور: "هل سنبدأ في سلسلة الحوارات الفلسفية التي تزعجينني بها كل حين؟!"

- " افعلي ما آمرك به دون جدال".
- "أبي.. أرجوك أجبني.. أريد أن أعرف لماذا لا تسمح لي بشرب القهوة، وأعدك أنّها ستكون المرة الأخيرة التي أناقشك فيها بشأن هذا الأمر".

قال بنفاذ صبر: "القهوة ضارة، وأنت لازلتِ صغيرة، هيا اذهبي وأعدّي القهوة وإلا قمت وأعددتها أنا بنفسي".

أعلم أن الجملة الأخيرة كانت تهديدا ينذر بانفجار أبي غضبًا.. فانسحبت من الحوار باختياري قبل أن ينهيه أبي بعنف، ودخلت المطبخ وعقلي لا يتوقف عن طرح التساؤلات..

إذا كانت ضارة، فمن الأولى أن يهتم بألا يشربها خوفًا على صحته، وإذا كان كبيرًا فلماذا لا يعد هو القهوة لنفسه؟

شرعت في إعداد القهوة، وقلبي مليء بالأسى على ضعفي وعجزي عن أخذ حريتي التي كثيرًا ما يسلبها أبي مني.. سلكت الدموع طريقها إلى عيني.. فأسندت رأسي إلى الحائط وبكيت بصمت، لم أعلم كم مرّ من الوقت وأنا على هذا الحال..

"لا بأس عزيزتي، أعدّي القهوة، أعلم أنك تحبين رائحتها، لاتجعلي موقفا سخيفًا يفسد عليك اللحظة، هيا، فإن لم يكن مقدّرًا لك أن تشربيها فاستمتعي بإعدادها حتى".

استجبت لصوتي الداخلي ووضعت القهوة على النار.. وما إن رأيت منظرها وهي تغلي، وشعرت برائحتها تداعب أنفي.. حتى سافرت بروحي إلى عالم آخر..

أغمضت عينيّ وابتسمت..

شهيق عميق لأُدخل أكبر قدر من تلك الرائحة الزكية إلى رئتيّ..

كثيرًا ما كانت أختي تمر عليّ وأنا على هذا الحال فتظنني قد جُننت، لم يعد هذا يزعجني كما كان، فقد بات يعجبني أن أصير أنا المجنونة الوحيدة في هذا البيت.

صببت لأبي القهوة في فنجانه، فراودتني رغبة في أن أرتشف القليل منها خلسةً.. لا بأس.. لن يعلم أبي بذلك.. قليل منها لا يضر.. هيا تشجّعي.

هممت بأن أرفع الفنجان إلى فمي، ولكن شيئًا ما بداخلي أوقفني بقوة!

هل هو ضميري؟ أم حبي لأبي؟ أم خوفي منه؟ لا أعلم.

المهم أنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لأتذوق ولو أقل القليل من القهوة..

قدّمت لأبي الصينية، ونظرت إليه بتعجب.. كان يشربها بميكانيكية شديدة وهو يقرأ الصحيفة، وقفت بعيدًا أتطلع إليه هامسة بصوت منخفض كي لايسمعني "كيف لا تقدر ما في يديك؟.. فأنت كبير، ومسموح لك أن تشرب القهوة.. ألا يستدعي ذلك منك أن تعطيها شيئًا من اهتمامك؟!"

كثيرًا ما كنت أسترق السمع لأحاديث أمي مع صديقاتها.. كنّ يتحدثن عن جمال القهوة ومذاقها الممتع، والسعادة التي تملأهن بسببها، حتى أنني أذكر أن إحداهن أقسمت ذات مرة بأن القهوة تزيدها جمالاً.

بدأت الفكرة تكبر في رأسي، واشتعل بداخلي التمرد الذي أحبه برغم المشكلات التي يجلبها لي، وعزمت.. سأخوض التجربة.. حتى لو كلّفني ذلك أن أخالف أمر أبي..

وقفت أمام المقهى الذي أمرّ به يوميًا في طريقي إلى مدرستي، أتطلع إلى منظر البن المطحون ورائحته المميزة تناديني لأدخل، وبالفعل دخلت..

دخلت وأنا خائفة، أتطلّع يمينا ويسارًا وكأنني أشعر أن هناك من يراقبني، وسيخبر أبي..

استجمعت قواي وطلبت فنجانًا من القهوة وقطعة كعك صغيرة، وما إن وصلت القهوة لطاولتي حتى نظرت إليها نظرة نصر.. نصر على خوفي، وعلى أبي الذي منعها عني..

نعم.. انتصرت.. فنجان صغير من القهوة موضوع أمامي على الطاولة كان كافيا ليرضي تمرّدي ويشعرني بأني قد ربحت الجولة ضد أبي..

مساكين هم بعض الآباء.. يظنون أن في الإجبار حماية، لكني لا أرى فيه إلا ستارًا يخفي وراءه الكثير من الجبن.

لن أتراجع هذه المرة.. سأشرب القهوة.. وليكن ما يكون..

مددت يدي وشربت أول رشفة بسرعة قبل أن أتراجع..

ما هذا؟!

أهذه هي القهوة التي يتغزّل بها الجميع؟!

لعل الخوف هو الذي أفقدني تركيزي، شربت مرة أخرى..

مُرّة جدا تلك القهوة، كيف يشربونها؟! سأضيف مزيدًا من السكر..

أضفت المزيد.. ثم المزيد والمزيد من السكر إلى أن اختفت المرارة، واختفى طعم القهوة أيضًا!

خاب أملي وشعرت باليأس..

لماذا لم أحبها كما أحبها غيري؟

تأملت الناس حولي في المقهى.. فرأيت كلاً منهم في حال، فمنهم من يجلس وحيدًا يشرب القهوة على مهل، ومنهم من يشربها بسرعة ليأخذ جرعته اليومية من الكافيين، وآخر اعتاد أن تخلق القهوة جوًا رومانسيًا جميلا في حديثه مع حبيبته التي ما إن ينتهيا من تناولها حتى تبدأ في قراءة الفنجانين، فينظر إليها بحب، ضاحكًا مما تفعل..

يتفنن الجميع في شرب القهوة، يشربونها بشغف وحب، بل ويخلقون لها أحيانا أجواء خاصة !

وضعت فنجاني على جانب الطاولة بضيق، وأكلت قطعة الكعك بعصبية، ثم دفعت الحساب وخرجت..

لم أفهم لماذا وصل الأمر معي إلى هذا الحد، لقد كنت حقًا غاضبة..

هل لأنني لم أحظ بمتعة شعر بها من حولي؟ أم لأنني لم أجرؤ من قبل على مخالفة أمر أبي، وعندما تجرأت وخالفته.. خاب أملي؟

ترقرقت الدموع في عيني، دخلت إلى غرفتي وبكيت بشدة.. لم يكن الأمر مجرد فنجان من القهوة، لقد كان نصرًا و انقلب إلى خيبة.. كان نصرًا زائفًا.

بكيت طويلاً حتى جفت عيناي وأخرجت كل ما بداخلي من ألم..

كنت قد عاهدت نفسي من قبل أن بعد كل مرة أبكي فيها أن أسألها ماذا تعلمت مما أبكاها، وأظل أبحث وأبحث.. حتى أجد جوابًا يرضيني، وعندما أجده.. أدوّنه في دفتري الخاص وأستخلص منه درسًا جديدًا أتبعه في حياتي.. فتحت دفتري وأنشأت حديثًا بيني وبين نفسي:

كنت أتمنى لو أنني أحببت طعم القهوة كما أحببت رائحتها، أو أحسست بتلك السعادة التي يحكون عنها.. أشعر وكأن شيئا ما ينقصني..

لماذا؟ ما سبب شعوري بذلك النقص؟!

لماذا أحب أن أكون مثل غيري من الناس، و إن لم أحظ بتلك المكانة شعرت وكأن بي شيئًا غريبًا؟!

لماذا لا أرضى باختلافي وأفتخر به؟!

دائما ما نقلّد بدون وعي..

لماذا نصرّ على أن ما يراه الآخرون جميلا لابد أن يكون كذلك.. ولا مجال للنقاش؟! لماذا لا نفكر إن كان هذا الشيء يناسبنا أم لا؟!

أرهقتني تلك التساؤلات.. لكنها فتحت في عقلي بابًا جديدا لم أفتحه من قبل.. وأنارت أمامي طريقا جديدًا ومبدأ لم أجربه..

القهوة ليست لي.. ليس لعيب فيها، ولا لأنني صغيرة كما يزعم أبي.. بل لأنني نسخة فريدة.. خُلقت.. وخُلق لها ما يناسبها.